آخر المخضرمين

حينما كنت في سنوات الدراسة الابتدائية، كان طريقي إلى المدرسة يمرُّ بحي الديرة في قلب العاصمة الرياض.

وكان الشارع النافذ من طريق الملك فهد يأخذك شرقاً باتجاه شارع الوزير ليكون **"مربع السُّلطة الذهبي"** شمالاً منك، وهو عبارة عن مساحة من الأرض يتربع قصر الحكم شمالها، ومحكمة الرياض جنوبها، وبينهما تقع شرطة العاصمة وأمانتها، وكانت هذه الأذرع الأربع هي قلب العاصمة النابض ومحركها الفاعل.

أما الإمارة فكان أميرها **سلمان بن عبد العزيز** قبل أن أولد، وأما المحكمة فرئيسها الشيخ **سليمان آل مهنا** قبل أن أعي وأدرك.

كانت المحكمة هي التي تحاذينا عند مرورنا بمربع "السُّلطة الذهبي"، وكان هذا في أواخر العقد الأول من القرن الخامس عشر الهجري.

كان المبنى متميزاً وإن لم يكن فخماً، كان إسمنتي اللون ذا طوابق خمسة أو ستة يمتد على طول الطريق العام مسافة ثلاثمائة مترٍ تقريباً، كنا كلما مررنا نرى عند بوابتها الكثير من الناس والعديد من النسّاخ وبائعي المساويك، وكنا نبصر "باصات السجون" واقفة أمام البوابة وبعض العسكر هنا وهناك، كان المنظر مثيراً.

"**المحكمة الكبرى**" هكذا كان اسمها مهيباً، وكان اسم "**ابن مهنا**" قريناً لها في الهيبة.

كانت صور أمير الرياض مألوفة حين طفولتي في وسائل الإعلام، كما كانت صور وتصاريح الأمين ومدير الشرطة لا تغيب كثيراً عن الصحف.

وحده رئيس المحكمة من هذا المربع الذهبي لا حضور له في الإعلام، كأنما قرر الشيخ وهو من الرعيل الأول من المشايخ والقضاة أن يتدثر بسمت القضاة المعهود في نجد بالنأي عن الإعلام وعن "مجالس" العلاقات العامة.

مرت أواخر طفولتي وأول شبابي سريعاً لأجد نفسي بعد سنةٍ من تخرجي أعمل "متدرباً" في المبنى الذي لازمني مرآه كل صباح في طريقي إلى المدرسة، وكان رئيسي هو ذاته الشيخ سليمان بن مهنا الذي كان اسمه يمر على طفولتي كثيراً، كان يمر اسمه ولا أعرف رَسْمه.

لقد أصبح لي صفةٌ هذه المرة لأقترب من الرجل الذي صحبني خياله طوال حياتي السالفة دون أن ألتقيه، واقترنت شخصيته بالمهابة في ذهني دون أن أجالسه.

دخلت عليه مكتبه ومعي "خطاب التوجيه" فاستقبلني استقبال الزميل، وأنا الذي أخطو في أوائل العشرين من العمر.

تلقاني بابتسامة صادقة وكلمات ودودة وتوجيهات حانية، بالكاد أسمع صوته، يلقي كلماته وكأنما يمليها إملاءً.

مكتبه لم يكن فخماً يلائم رئيساً لأكبر محكمة في أهم عاصمة نفطية في العالم، يبدو أنه لا يكترث كثيراً لهذا، رغم أن كل أثرياء المملكة ورجال أعمالها تقريباً فترة الثمانينات والتسعينات وبداية الألفية دخلوا هذا المكتب إضافة لأمراء ووزراء لا حصر لهم، ناهيك عن سائر الناس بكافة مستوياتهم. التفاتاته محسوبة الدرجة، لا تقرأ فيها كبراً ولا تصنعاً، إنما هو السمت الفطري والوقار المشيخي. ورغم زِحام مهامه، إلا أني رأيت على مكتبه نسخة قديمة من كتاب فقهي، رأيته بعد ذلك مراراً بين يديه، إنه كتاب "الكافي" لابن قدامة، علمت بعد ذلك أن لديه رصيداً فقهياً ثرياً ومَلَكة فقهية ممتازة، شُغلَ بعمله عن الجلوس للتدريس.

لقد رأيته أخيراً وكان هذا عام ١٤١٩هـ تقريباً.. شيخاً في منتصف الستين، متوسط الطول جميل الملامح أنيق الملابس، يُخيَّل إليَّ أنه يلبس الشماغ مرة أو مرتين ثم لا يعود للبسه مرةً أخرى، كان يلبس المشلح بطريقة لا أراها كثيراً، حيث يرخي "المكسر" ويُسمى "زمام البشت" وهو (الجزء الذي يلامس الكتف ويكون تحت العنق)، يرخيه أسفل قليلاً ليبدو وكأنه لا يُغطي أعلى الظهر بحيث لا يلامس عنقه كما يفعل الكثيرون، سمعت بعد ذلك مصطلحاً في مجتمع القضاة "لِبْسَةْ ابن مهنا" إذا تحدثوا عن طرائق لبس المشالح.

هذا هو الشيخ الذي طرق اسمه مسامعي كثيراً.

إذاً أنا هنا أخيراً.. في هذه القلعة التي لا يشبهها مكانٌ آخر في بلادي.

هنا يتطاحن كبار رجال الأعمال على أموال وشركات وعقارات يساوي مجموعها ميزانية دول، هنا يُحكم بجزِّ رؤوس ومُددٍ من السجن تساوي في مجموعها قروناً، هنا تُنهى علاقات زوجية وخلافات قبلية، هنا يُنظر في دعاوى عقارية تساوي مجموع مساحاتها مساحات دولٍ عدّة، هنا تُقبر أحلام وتُسقى أماني.

في هذا المكان ترى سَرَاة القوم وبسطاءهم، ونُخب البلاد ودهماءهم، وأشراف الناس ومجرميهم، هنا محكمة الرياض ورئيسها الوقور جداً والرزين سمتاً **سليمان بن عبدالله آل مهنا**.

كان الشيخ على رأس هذه الجهاز الذي يشبه ساحات النزال، يرأس عشرات من القضاة، صلاحياتهم شبه مطلقةٍ وصلاحياته هو تجاههم وتجاه أحكامهم محدودة. يتقاطر على مكتبه أكابر البلاد والنافذون بها، والرعاع الذين لا نفوذ لهم حتى على صبيانهم في بيوتهم، كلٌ يشتكي وكلٌ يتظلم، والشيخ في مكتبه يستقبل الجميع ويتكلم مع الكل، كلامه همس، وصوته خفيض، وعباراته مع الجميع تعدها عداً، وابتسامته لا تفارقه فيخرج الجميع من عنده إن لم يكونوا راضين فليسوا عليه بعاتبين.

كان يرأس عشرات القضاة الذين تتعدى صلاحياتهم صلاحيات الوزراء وأضعافهم من الموظفين، وتحت مسؤوليته عَقْد مئات الجلسات القضائية كل يوم، وتواقيع تقارب ألف توقيع في اليوم الواحد "حقيقة ومعلومة دقيقة".

وفي محكمته تُنظر أكثر القضايا حساسية في المجتمع وأهمها لفتاً لأنظار الرأي العام، ويعلم أنَّ جهازه هذا تكثر محاولات النفاذ فيه من قِبل فاسدين، ويتلصص على أسراره كثير من الصحفيين والفضوليين، ومع كل هذا فهو يدير ذلك كله ويراعي تلك الشؤون، بسياسة دقيقة وحسٍ عالٍ وذوقٍ راقٍ.

ميزة الشيخ سرعة استقبال المُراجع، وكان بابه مفتوحاً لا تكاد تجد عنده من ينتظر الدخول، لا يحب الردود الشفهية "ما لم يكن الأمر يمكن حله شفهياً"، بل يدخل في إجراء رسمي أو شبه رسمي يرضي شعور المراجع ويستلُّ حنقه.

كان يأتيه المراجع منفعلاً وقد تخاصم مع قاضيه وتلاسنا، فيستمع له الشيخ ثم يقول له: يا ولدي، النار لا تُطفى بالنار، عُد إلى القاضي وقل له كذا وكذا وتلطف وسيسمح أمرك، "يُلَقِّن المراجع كيف يعود مع قاضيه إلى نقطة ما قبل المشادة"، وإن كان للمراجع حقُ طلبِ إجراءٍ ما فينبهه إليه، ثم يتصل الرئيس بالقاضي بعد خروج الخصم مباشرة وقبل لقاءهما الوشيك، فيهدئ من خاطر القاضي إن كان في خاطره شيء، ويتلطف معه بحديث يستدرك معه القاضي ما فقد من صبره ويلينَ لَهجته؛ ليقنع الخصم أو ليخرج على الأقل وهو يرى أن حقوقه في التقاضي قد تم استيفاؤها.

كان بهذا يحفظ مكانة القاضي في عين الخصم لئلا يشعر الخصم بأنه استقوى بالرئيس، ويحفظ حق الخصم في عودته ومراجعته للقاضي في الحديث والإجراء.

لم يكن للشيخ ظاهر وباطن، لا يُظهر لك شيئاً وهو يبدي خلافه، كان مريحاً في التعامل، كلماته عميقة ذات دلائل قريبة وبعيدة، لا يرمي الجملة عبثاً أو حشواً، كان يقرأ صكوك القضاة حديثي التعيين قبل توقيعها؛ ليعرف كفاءتهم وقدراتهم، كان ينبه ويوجه بلطف، لم يكن يتدخل في عمل القضاة، وكان يدافع عن قضاته أن يتدخل أحد في عملهم أو يتهم شخوصهم ما لم تكن هناك دلائل كافية. كان إذا رأى من القاضي ما يستوجب التنبيه أو العتب أو الرفع إلى "مجلس القضاء الأعلى" واجه القاضي بذلك ولا يُخفي شيئاً.

كان القضاة يهابونه ويحترمونه، ويعالج التدافع بينهم بشكل أبوي.

أمضى الشيخ في رئاسة المحكمة أكثر من ربع قرن، ومَن عرف عمل المحاكم وعمل محكمة الرياض في فترته خصوصاً أدرك أنَّ هذا كان حِمْلاً ثقيلاً يترك أثره على صحة مَن كان رئيساً وعلى نفسيته، ولكن كان الشيخ ثابتاً متحملاً باقتدار وكفاءة، وكان خاطره يسع لمثل هذا الحِمْل وأكثر.

ولقد ضاق مبنى المحكمة بمشاركة محكمة أخرى فترةً من الزمن لها رئيس وقضاة، وبدا الشيخ أكثر ما يكون حِلْماً وأثبت ما يكون رأياً

وهو يوازن انتظام العمل وتوزيع المهام، غير ملتفتٍ لصغائر الأمور وتفاصيلها.

كان له خط مفتوح مع الإمارة وأميرها، ومع مجلس القضاء ورئيسه، وكان حلقة الوصل الوثيقة والشاهد على التفاصيل في أولها والحوادث من بداياتها.

مرَّ القضاء في بلادنا بأطوار وفترات، وكانت الفترة بين قضاء القضاة في المساجد وعملهم بعد ذلك عن بُعدٍ "بعد أن ألغت التقنيةُ الأوراقَ في أروقة المحاكم" بينهما زمناً ليس بالطويل في أعراف الدول والشعوب، ولئن لم يكن الشيخ قد أدرك قضاء المساجد ولم يستمر في العمل ليرى التقاضي عن بُعد، فإنه قضى ورأس ما بينهما، وهي فترة كانت مزعجة للقضاة والخصوم على السواء، شديدة العسر فقيرة اللوائح والتنظيمات، يتخلل إجراءاتها شيء من الفوضى، وكانت اختصاصات المحاكم كثيرة وبعضها غير معقول "كإثبات الحياة"، وكان القضاة قليلين والقضايا ثقيلة كثيرة.

يضاف لذلك عدم التأهيل الكافي والمستمر لكثير من منسوبي المحاكم.

وإذا افترضنا منحنىً قياسياً للقضاء في بلادنا فإنه بدأ بسيطاً ثم تخللته التعقيدات والثقل ثم عاد للسهولة النسبية، وكان هرم الصعوبة والثقل زمن الشيخ سليمان، وكان يرأس أصعب محكمة.

لقد مررتُ بمحكمة الرياض متدرباً مدة سنتين ثم كان قدري شمالاً إلى حيث هجرات الطيور، ومكثت هناك قرابة عشر سنين، ثم

عدت لمحكمة الرياض قاضياً مدة ثلاث سنوات، ووالله إني "لأتفزز" من نومي من همٍّ يبيت معي ويصبح من جراء ما تحويه أدراج المكتب من قضايا أثمانها مليارات ووجه الحق فيها محتمل، سوى قضايا الأحوال الشخصية والدماء، وإني أجيء للمحكمة كل صباح بشعور يشبه شعور الذاهب إلى امتحان نهائي مصيري وهو لم يذاكر دروسه، رغم كل ما أبذله في التحضير والمشورة.

لقد كبرت في هذه السنوات الثلاث عُمْراً كاد أن يلقيني على أعتاب الشيخوخة وأنا بَعْدُ في الثلاثين.

وكان شيخنا رئيساً تلك الفترة وخمساً وعشرين عاماً قبلها ولا يبدو عليه شيء من مرور ثقيلات السنين، يا لَجَلَده تبارك الله.

له حديث جانبي ثقيل رزين مع الملك عبدالله رحمه الله حين افتتح المبنى الحالي للمحكمة في شهر شوال عام ١٤٢١هـ مُسجَّل في "اليوتيوب" يدل على كمال عقله.

في ظني أنَّ ٨٠٪ من قضاة المملكة قد عملوا أو تدربوا تحت رئاسته.

عاش مخلصاً لعمله بعيداً عن الأضواء، لم يسع لصنع علاقات عامة رغم أنَّ كثيراً من ذوات المجتمع ودُّوا لو وجدوا سبيلاً للتقرب من الشيخ.

مِن قَدَرِ كل قاضٍ في أي مركز أو محافظة أو منطقة أن يشاطر المسؤول الإداري (رئيس المركز أو المحافظ أو الأمير) كثيراً من الأعمال؛ إذ أنَّ بينهما علاقة تكاملية واتصالاً يومياً.

وكان من قدر الشيخ أن يشاطر في كل حياته الوظيفة أمير منطقة الرياض "**الملك سلمان**" حفظه الله.

يزوره أمير الرياض "حينها" الملك سلمان بن عبدالعزيز في منزله كثيراً وفي ظني كل سنة.

هيبته في الإمارة بشكل عام واحترام الملك سلمان له "إبَّان إمارته لمنطقة الرياض" حكاية أخرى، أذكر تعليق الملك سلمان لما زرناه بعد تعيينه وزيراً للدفاع وتركه إمارة الرياض عند قال الملك: طوال سنوات العمل مع الشيخ سليمان المهنا لم نكن نعتبر الإمارة والمحكمة إلا جهازاً واحداً.

كتب مرة أحد مسئولي الإمارة خطاباً بناء على شكوى من مراجع وطلب من المحكمة مسائلة القاضي، فأحال الشيخُ الخطابَ إلى الأمير فعوقب المسئول.

رآه أحد الزملاء مرة يقود سيارته بنفسه خارجاً من مواقف المحكمة، ولم تكن هذه عادته خصوصاً مع اعتبار سنه ومكانته، وكان سائقه رجلاً سعودياً طويل القامة أسمر البشرة، فسأله زميلنا عن السائق فقال: "يختبر، ما نيب واقف قدام مستقبَله".

ختم الشيخ حياته الوظيفية بعضوية "مجلس القضاء الأعلى" إضافة لعمله رئيساً للمحكمة، وكان رأيه في المجلس محل اعتبار كبير.

كان الشيخ يرأس محكمة الرياض وهو بدرجة "رئيس استئناف".

بلغ الشيخ السنَّ التقاعدي للقضاة "سبعين عاماً" وتم التمديد له سنوات إضافية بأمر سامٍ.

وُفقَّ الشيخ بذرية صالحين نابهين تبارك الله، وكان أبوه صالحاً قبله، فقد كان رحمه الله شيخاً ومعلماً في بعض قرى عالية نجد، ولم يزل له ذكرٌ حسنٌ هناك.

وشقيقه الشيخ محمد رَأَسَ عدداً من هيئات الحسبة، وهو من صلحاء مدينة الرياض، تُسر عند لقائه، ووهبه الله ذرية نابهين صالحين.

يقضي الشيخ عقده التاسع ممتعاً بعافيته والحمد لله، ما بين منزله ومزرعته على طريق الحجاز.

- ولد الشيخ عام ١٣٥٤هـ وهو من بلدة البَرَّة من إقليم المحمل، وهو شمّري النسب طائي المَحتِد.

- باشر القضاء ابتداءً أواخر الثمانينات الهجرية.

- قضى في مدينة العيون من إقليم الأحساء مدة ثمان سنين تقريباً.

- عمل الشيخ في ثلاثة مبانٍ لمحكمة الرياض، الأولى وكانت شمال شرقي مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم وغرب "سوق الزَّل"، والثانية عنها إلى جنوب مسجد الشيخ محمد بن إبراهيم على طريق طارق بن زياد، والثالثة مبناها الحالي "القلعة الذهبية" ولقد شاركناه مراسم الانتقال إليها بحضور الملك عبدالله رحمه الله وكان ولياً للعهد آنذاك في عام ١٤٢٢هـ.

- رأس محكمة الرياض عام ١٤٠٧هـ وكان قبل ذلك قاضياً فيها منذ أواخر التسعينات وتقاعد عام ١٤٣٣هـ.

وبعدُ:

فما سبق لم يكن ترجمة أو تعريفاً، ولكنها التفاتة لماضٍ جميل، سَعدتُ فيه برفقة أجمل، أَمتاح من ذلك الماضي إذا أوغلت بي السنون في مساربها.

أجد في طيف الشيخ وذكراه عبق البدايات وتباشير النهايات.

أجد في الشيخ حلقةً تصلني بالرعيل الأول من القضاة، الذين رافقوا تأسيس الدولة وتوحيد البلاد، وإن لم يكن الشيخ من جيل التأسيس ولكنهم كانوا سَلَفَه وهو من الجيل الذي أتى بعدهم.

أجد من مفاخري التي إن سطرتها يوماً أنني عشت شطراً من حياتي الوظيفية في سلطة كان يرأسها الشيخ/ سليمان بن عبدالله آل مهنا، آخر الرؤساء المخضرمين.

ناصر بن محمد بن طالب

٣ شوال ١٤٤١هـ